٢- الأحداث العظام والآيات الجسام
التي سبقت ميلاد المصطفى ﷺ

تمهيد:

لا شك في أن الأمور العظيمة والأحداث الجسيمة يسبقها من الإشارات والأحداث والآيات ما يمُهد لها، ويكون مؤذنًا بقرب ميلادها، ولم يطرق البشرية حدث أعظم من هذا الحدث، وهو ميلاد المصطفى الهادي الذي يسوق الله عَزَّ وَجَلَّ على يديه هذا الخير الكثير، والفضل الكبير، بعد أن أظلمت أرجاء الأرض بالشر والشرك، وبعد أن نظر الله عَزَّ وَجَلَّ إليهم فمقتهم عربهم وعجمهم.

كما ورد في الحديث: «**أَلا إِنَّ رَبِي أَمَرني أَنْ أُعلمَكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كُلُّ مَالٍ نحلته عبدي حلال، وَإِنِّي خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشَّيَاطِين فاجتالتهم عَنْ دينهم، وأَمرتُهم أن يُشَركُوا بِي مَا لَمْ أَنزلْ بِه سلطانًا، وَإِنَّ اللهَ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان، وإن الله أمرني أن أحرِّق قريشًا، فقلت: إذًا يثلغوا رأسي فيدعوه خُبزة، قال: استخرجهم كما أخرجوك، واغزهم نغزك، وانفق فسننفق عليك، وابعث جيشًا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك...**»[(١)].

يصور الغزالي الحياة بمكة فيقول: وقد كانت مكة على عهد البعثة تموج بحركة عاصفة من الشهوات والمآثم، وكان الرجال يحيون فيها أمثلة قوية لنضج الأهواء وشلل الأفكار، أو نمائها في ظل الهوى الجامح ولخدمته وحده.

---

(١) رواه مسلم (١٧/ ١٩٧-١٩٩) الجنة وصفة نعيمها، وأحمد (٤/ ١٦٢)، وابن ماجه (٤١٧٩) مختصرًا، وقال ابن الأثير: قوله: «**اجتالتهم الشياطين**» أي: استخفتهم فجالوا معهم، وقوله: «**أمرني أن أحرق قريش**» كناية عن القتل، **والثلغ**: الشرخ، باختصار من «جامع الأصول» (١١/ ٧٥٠).

كفر بالله واليوم الآخر، إقبال على نعيم الدنيا في التشبع منه، رغبة عميقة في السيادة والعلو ونفاذ الكلمة، عصبيات طائشة تسالم وتحارب من أجل ذلك، تقاليد متوارثة توجه نشاط الفرد المادي والأدبي، من الخطأ أن تحسب «مكة» يومئذ قرية منقطعة عن العمران في صحراء موحشة، لا تحس من الدنيا إلا الضرورات التي تمسك عليها الرمق، كلا، إنما شبعت حتى بطرت، وتنازعت الكبرياء حتى تطاحنت عليها، وكثر فيها من تغلغل الإلحاد في أغوار نفسه حتى عز إخراجه منه، فهم بين عمٍ عن الصواب أو جاحد له، وفي هذا المجتمع الذي لم ينل حظًا يذكر من الحضارة العقلية، بلغ غرور الفرد مداه، ووجد من يسابق فرعون عتوه وطغواه.

قال عمرو بن هشام معللاً كفره برسالة محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: زاحمنا بني عبد منافٍ في الشرف، حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يوحي إليه، والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبدًا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، وزعموا أن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو كانت النبوة حقًا لكنت أولى بها منك، لأني أكبر منك سِنًا وأكثر منك مالاً[1].

وقال الجزائري حَفِظَهُ اللهُ **ما ملخصه:** ومن جملة العادات السيئة التي هبطت بالمجتمع العربي قبل الإسلام:

١ – القمار والمعروف بالميسر، وقد حرمه الإسلام بآية سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

٢ – شرب الخمر: والاجتماع عليها، والمباهاة بتعتيقها وغلاء ثمنها.

٣ – نكاح الاستبضاع، وهو أن تحيض امرأة الرجل منهم فتطهر، فيطلب لها أشراف الرجال من أجل أن تنجب ولدًا يرث صفات الكمال التي يحملها أولئك الواطئون لها.

٤ – وأد البنات: وهو أن يدفن الرجل ابنته بعد ولادتها حية في التراب خوف العار.

---

(١) باختصار من «فقه السيرة» (٢٥، ٢٦).

٥- قتل الأولاد مطلقًا ذكورًا كانوا أو إناثًا، وذلك عند وجود فقر شديد.

٦- تبرج النساء بخروج المرأة كاشفة عن محاسنها مارة بالرجال الأجانب، متغنجة في مشيتها متكسرة كأنها تعرض نفسها وتغري بها غيرها.

٧- اتخاذ الحرائر من النساء الأخدان من الرجال.

٨- إعلان الإماء عن البغي بهن وذلك بأن تجعل إحداهن راية حمراء على باب منزلها لتعرف أنها بغي ويغشاها الرجال.

٩- العصبية القبلية.

١٠- شن الغارات والحروب على بعضهم بعضًا للسلب والنهب، ومن أشهر حروبهم حرب داحس والغبراء وحرب بُعاث، وحرب الفجار(١).

قال الغزالي: فلما اكتظت الأرض بالمفاسد والضلالات، زاد التطلع إلى مقدم هذا المصلح المرتقب، وكان هناك رجال ممن ينكرون الجهالة السائدة يستشرفون للمنصب الجليل، ويتمنون لو اختيروا له، منهم «أُمية بن أبي الصلت» الذي جعل شعره بالتحدث عن الله، وما يجب له من محامد، حتى قال رسول الله ﷺ فيه: «**كَادَ أُمَيةٌ أَنْ يُسلِمَ**»(٢).

وعن عمرو بن الشَّريد عن أبيه: ردفت رسول الله ﷺ يومًا فقال: «**هل معك من شعر أُمية بن أبي الصلت؟**»: قلت: نعم، قال: **هيه**، فأنشدته بيتًا فقال: **هيه**، حتى أنشدته مَائة بيت(٣).

---

(١) «هذا الحبيب يا محب» (٣١، ٣٢).

(٢) جزء من حديث رواه البخاري (١٠/ ٥٥٣) الأدب، ومسلم (١٥/ ١٣) الشعر، وأوله: «**أصدق كلمة قالها شاعر...**»، واقتصر الترمذي على الجزء الأول منه (١٠/ ٢٩١) الأدب.

(٣) رواه مسلم (١٥/ ١١) الشعر، وقال النووي: ومقصود الحديث أن النبي ﷺ استحسن شعر أمية، واستزاد من إنشاده لما فيه من الإقرار بالوحدانية والبعث، **ففيه**: جواز إنشاد الشعر الذي لا فحش فيه وسماعه سواء شعر الجاهلية وغيرهم، وأن المذموم من الشعر الذي لا فحش فيه إنما هو الإكثار منه، وكونه غالبًا على الإنسان فأما يسيره فلا بأس بإنشاده وسماعه وحفظه «شرح النووي على صحيح» مسلم هامش (١٥/ ١٢).

غير أن القدر الأعلى تجاوز أولئك المتطلعين من شعراء وثائرين، وألقى بالأمانة الكُبرى إلى رجل لم يتطلع إليها، ولم يفكر فيها، ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[القصص: ٨٦].

إن الاصطفاء للرسالات العظيمة ليس بالأمل فيها ولكن بالطاقة عليها، وكم في الحياة من طامحين لا يملكون إلا الجرأة على الأمل، وكم من راسخين يطويهم الصمت حتى إذا كُلِفُوا أتوا بالعجب العجاب، ولا يعلم أقدار النفوس إلا بارئها، والذي يريد هداية العالم أجمع يختار للغاية العظيمة نفسًا عظيمة[1].

وقبل أن نبدأ في بيان ميلاد أفضل البشر وأكرم الرسل، نُبين شيئًا من الآيات العِظام، والأحداث الجِسام، التي سبقت ميلاده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإن الأمور العظيمة قد يسبقها من عظائم الأمور ما يدل عليها ويشير إليها، وسوف نتخير بإذن الله تعالى أصح الروايات ونقصر على ثلاثة أحداث بالإضافة إلى التمهيد السابق.

١- قصة حفر عبد المطلب لزمزم.

٢- قصة نذر عبد المطلب بأن ينحر أحد أبنائه.

٣- قصة الفيل.

(١) «فقه السيرة» للغزالي (٢٧/ ٢٨).

١- قصة حفر عبد المطلب لزمزم

قال ابن إسحاق: وكان أول ما ابتدئ به عبد المطلب من حفرها كما حدثني يزيد ابن أبي حبيب المصري عن مرثد بن عبد الله البزني، عن عبد الله بن زرير الغافقي أنه سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه يحدث حديث زمزم حين أمر عبد المطلب بحفرها قال: قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر إذا أتاني آت فقال: احفر طيبة قال: قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني فلما كان [من] الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر بَرَّة قال: فقلت: وما برَّة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر المضنونة، قال: فقلت: وما المضنونة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر زمزم، قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبدًا ولا تُذَمُّ، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل.

قال ابن إسحاق: فلما بيّن له شأنها ودل على موضعها، وعرف أنه قد صدق، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، ليس له يومئذٍ ولد غيره، فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب الطيّ كَبّر، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته فقاموا إليه، فقالوا: يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل وإن لنا فيها حقًا، فأشركنا معك فيها، قال: ما أنا بفاعل، وإن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم، فقالوا له: فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد هذيم، قال: نعم، قال: وكانت بأشراف الشام، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه من بني عبد منافٍ، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، قال: والأرض إذ ذاك مفاوز، قال: فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام؟ فنى ماء عبد المطلب وأصحابه فظمئوا حتى أيقنوا الهلكة، فاستسقوا من معهم

من قبائل قريش، فأبوا عليهم فقالوا: إنا بمفازة، ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم، فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال: ماذا ترون؟ قالوا: ما رأينا إلا تبع لرأيك فمرنا بما شئت، قال: فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته، ثم واروه حتى يكون آخركم رجلًا واحدًا، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعًا، قالوا: نعم ما أُمرت به، فقام كل واحدٍ منهم فحفر حفرته ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشًا، ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا لعجز، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، ارتحلوا فارتحلوا، حتى إذا فرغوا، ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم غافلون تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها فلما انبعثت به انفجرت من تحت خُفها عين من ماء عذب، فكبَّر عبد المطلب وكَبَّر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل من قريش، فقال: هلم إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا، فجاءوا فشربوا واستقوا، ثم قالوا: قد والله قضى لك علينا يا عبد المطلب، لا نخاصمك في زمزم أبدًا، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى ساقيتك راشدًا، فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبينها[1] .

٢- قصة نذر عبد المطلب بأن ينحر أحد أبنائه

قال الطبري في «تاريخه»: حدثني يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: أخبرنا يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن قبيصة بن ذؤيب أنه أخبره أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة في أمر إن فعلته، ففعلت ذلك الأمر، فقدمت المدينة لتستفتي

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ١٦٦-١٦٨)، وقال أخونا الفاضل الدكتور عادل عبد الغفور في رسالته: «دراسة مرويات العهد المكي»: وهذا إسناد حسن رجاله ثقات إلا ابن إسحاق فإنه صدوق يدلس كما تقدم، وقد صرح بالتحديث فزال ما يخشى من تدليسه (٨٤)، من الطبعة الماجستيرية على الآلة الكاتبة.

عن نذرها فجاءت عبد الله بن عمر فقال لها عبد الله بن عمر: قد نهاكم الله أن تقتلوا أنفسكم فلم يزدها عبد الله بن عمر على ذلك، فجاءت عبد الله بن عباس فاستفتته فقال: أمر الله بوفاء النذر، والنذر دين ونهاكم أن تقتلوا أنفسكم، وقد كان عبد المطلب بن هاشم نذر إن توافق له عشرة رهط أن ينحر أحدهم، فلما توافى له عشرة أقرع بينهم أيهم ينحر، فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب، وكان أحبُّ الناس إلى عبد المطلب، فقال عبد المطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على المائة من الإبل.

فقال ابن عباس للمرأة: فأرى أن تنحري مائة من الإبل مكان ابنك، فبلغ الحديث مروان وهو أمير المدينة، فقال: ما أرى ابن عمر ولا ابن عباس أصابا الفتيا إنه لا نذر في معصية الله، استغفري الله وتوبي إلى الله وتصدقي واعملي ما استطعت من الخير، فأما أن تنحري ابنك فقد نهاك الله عن ذلك، فَسُرّ الناس بذلك وأعجبهم قول مروان، ورأوا أنه قد أصاب الفتيا، فلم يَزالوا يفتون بلا نذر في معصية الله[1].

٣- قصة الفيل

وهذه الحادثة أثبتها الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه العزيز، وأشار إليها النبي ﷺ في أصح كتب السنة البخاري ومسلم، وأتت تفاصيلها في كتب السير والتاريخ، وذكرها علماء التفسير في تفاسيرهم.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١-٥].

---

(١) «تاريخ الطبري» (٢/ ٢٣٩، ٢٤٠) قال الدكتور عادل عبد الغفور في دراسة «مرويات العهد المكي»: وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات - صفحة ٩٤ من طبعة الآلة الكاتبة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ [١]: هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله وأرغم أنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة، وكانوا قومًا نصارى، وكان دينهم ذاك أقرب حالًا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدرة يقول لم ينصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق، الذي سنشرفه ونوقره ببعثة النبي الأُمِّي محمد - صلوات الله وسلامه عليه - خاتم الأنبياء.

أما إشارات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحادث فمنها:

أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما خرج زمن الحديبية سار حتى كان بالثنيَّة التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس: حَل حَل[٢]، فألحت[٣] فقالوا: خلأت[٤] القصواء، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**مَا خَلأَتْ القَّصواء وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلق وَلَكنْ حَبَسَهَا حابِسَ الفِّيلِ**»[٥].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٤٨، ٥٤٩).

قوله: ﴿أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣] هي حزمة الحطب واستعير لجماعة الطير، قوله: ﴿سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤]: أي من طين متحجر، قوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قال ابن جرير: كزرع أكلته الدواب فراثته، فيبس وتفرقت أجزاؤه شبه تقطع أوصالهم بالعقوبة التي نزلت بهم وتفرق آراب أبدانهم بها بتفرق أجزاء الروث الذي حدث عن أكل الزرع، باختصار من «محاسن التأويل» (١٧/ ٢٥٦).

(٢) كلمة تقال للناقة إذا تركت السير «فتح الباري» (٥/ ٣٣٥).

(٣) قوله: «ألحت» أي: تمادت على عدم القيام وهو من الإلحاح (فتح الباري: ٥/ ٣٣٥).

(٤) الخلأ للنوق كالإلحاح للجمال، والحران للدواب، يقال: خلأت الناقة، وألح الجمل، وحرن الفرس (النهاية ٢/ ٥٨).

(٥) رواه البخاري (٥/ ٣٨٨) الشروط.

ولما فتح الله عَزَّ وَجَلَّ على رسوله ﷺ مكة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «**إن الله حبس عن أهل الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين**»(١).

وروى الحاكم في «مستدركه» وعنه البيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبل أصحاب الفيل، حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب، ما جاء بك إلينا، ما عناك إلا بعثت فنأتيك بكل شيءٍ أردت، فقال: أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا أمن، فجئت أخيف أهله، فقال: إنا نأتيك بكل شيءٍ تريد فارجع، فأبى إلا أن يدخله، وانطلق يسير نحوه، وتخلف عبد المطلب فقام على جبل فقال: لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله ثم قال:

اللهُمَ إنَّ لكلِّ إله ... حلالاً فامْنَعْ حَلالَكَ

لاَ يَغلبنَّ مَحَالُهمْ ... أَبداً مَحَالَكَ

اللهُمَ فَإنْ فَعَلتَ ... فَأمرٌ مَا بَدا لَكَ

فأقبلت مثل السحابة نحو البحر حتى أظلتهم طير أبابيل التي قال الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤] ترميهم بحجارة من سجيل، قال: فجعل الفيل يعج عجًا فجعلهم كعصفٍ مأكول(٢).

الفوائد والآثار الإيمانية:

١- في هذه الحادثة بيان شرف الكعبة أول بيت وضع للناس، وكيف أن المشركين كانوا يعظمونها، ولذا حسدهم أبرهة الحبشي عليها، وأراد أن يهدمها، وما ازدادت الكعبة بالإسلام إلا شرفًا وحرمةً، فلم يكن إهلاك أبرهة، ومن معه لحرمة سكان مكة، اللهم إلا هذا الحمل الطاهر الذي تحمله آمنة بنت وهب في أحشائها، وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ

(١) رواه البخاري (٥/ ١٠٤، ١٠٥) اللقطة، ومسلم (١٠/ ١٢٨) الحج، وأبو داود (٢٠٠١) المناسك.

(٢) رواه الحاكم (٢/ ٥٣٥) التفسير، عنه البيهقي في «الدلائل» (١/ ١٢١، ١٢٢) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي فقال: صحيح.

﴿كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾، قال الرازي: اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية «إن قيل» لم سماه كيدًا وأمره كان ظاهرًا، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت؟ **(قلنا)**: نعم لكن كان الذي في قلبه شرًا مما أظهر، لأنه كان يضمر الحسد للعرب، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلدته[1].

٢- **قال القاسمي**: قال القاشاني: قصة أصحاب الفيل مشهورة، وواقعتهم قريبة من عهد الرسول ﷺ، وهي إحدى آيات قدرة الله، وأثر من سخطه على من اجترأ بهتك حرمه، وإلهام الطيور والوحوش أقرب من إلهام الإنسان، لكون نفوسهم ساذجة، وتأثير الأحجار بخاصية أودعها الله تعالى فيها ليس بمستنكر، ومن اطلع على عالم القدرة، وكشف له حجاب الحكمة لميه أمثال هذه.

قال: وقد وقع في زماننا مثلها من استيلاء الفأر على مدينة أبيورد، وإفساد زروعهم، ورجوعها في البرية إلى شط جيحون، وأخذ كل واحدة منها خشبة من الأيكة التي على شط نهرها وركبوا عليها، وعبروا بها من النهر[2].

٣- **قال الماوردي**: آيات الملك باهرة، وشواهد النبوة ظاهرة، تشهد مباديها بالعواقب فلا يلتبس فيها كذب بصدق، ولا منتحل بحق، وبحسب قوتها وانتشارها يكون بشائرها وإنذارها.

ولما دنا مولد رسول الله ﷺ تعاطرت آيات نبوته، وظهرت آيات بركته، فكان من أعظمها شأنًا، وأشهرها عيانًا وبيانًا أصحاب الفيل، أنفذهم النجاشي من أرض الحبشة في جمهور جيشه إلى مكة لقتل رجالها وسبى ذراريها، وهدم الكعبة.

إلى أن قال: وآية الرسول في قصة الفيل أنه كان في زمانه حملًا في بطن أمه بمكة، لأنه ولد بعد خمسين يومًا من الفيل، وبعد موت أبيه في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، فكانت آيته في ذلك من وجهين.

---

(١) «التفسير الكبير» أو «مفاتيح الغيب» (٣٢/ ٩٤).

(٢) «محاسن التأويل» (١٧/ ٢٦٢).

والأول- أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا، فأهلكهم الله تعالى لصيانة رسوله أن يجري عليه السبي حملًا ووليدًا.

والثاني- أنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقون به رفع أصحاب الفيل عنهم، وما هم أهل كتاب لأنهم كانوا بين عابد صنم، أو متدين وثن أو قائل بالزندقة، أو مانع من الرجعة، ولكن لِما أراده الله تعالى من ظهور الإسلام، تأسيسًا للنبوة، وتعظيمًا للكعبة، وأن يجعلها قِبلة للصلاة، ومنسكًا للحج.

فإن قيل: فكيف منع الكعبة قبل مصيرها قبلة ومنسكًا، ولم يمنع الحجاج من هدمها، وقد صارت قبلة ومنسكًا حتى أحرقها، ونصب المنجنيق عليها، فقال فيها على ما حكي عنه:

كَيْفَ تَرَاهُ سَاطِعًا غُبَارُهُ ... وَاللهُ فِيمَا يَزْعُمُونَ جَارُهُ

وقال راميها بالمنجنيق:

قَطَارَةٌ مِثْلُ الفَنِيقِ المُزبَّدِ ... أَرمِي بِهَا أَعوَادَ كُلِ مَسجِدِ

قيل: فعل الحجاج كان بعد استقرار الدين، فاستغنى عن آيات تأسيسه، وأصحاب الفيل كانوا قبل ظهور النبوة، فجعل المنع منها آية لتأسيس النبوة، ومجيء الرسالة، على أن الرسول قد أنذر بهدمها، فصار الهدم آية، فلذلك اختلف حكمها في الحالتين، والله تعالى أعلم.

ولما انتشر في العرب ما صنع الله تعالى بجيش الفيل تهيبوا الحرم وأعظموه، وزادت حرمته في النفوس، ودانت لقريش بالطاعة، وقالوا: أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم، فزادوهم تشريفًا وتعظيمًا، وقامت قريش لهم بالوفادة والسدانة والسقاية، والوفادة: مال تخرجه قريش في كل عام من أموالهم يصنعون به طعامًا للناس أيام مني، فصاروا أئمة ديانين، وقادة متبوعين، وصار أصحاب الفيل مثلًا في الغابرين[1].

(١) باختصار من «أعلام النبوة» للماوردي (١٨٥-١٨٩) ط. مكتبة الكليات الأزهرية.

٤- **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد تواترت قصة أصحاب الفيل، وأن أصحاب الحبشة النصارى ساروا بجيش عظيم، معهم فيل ليهدموا الكعبة، لما أهان بعض العرب كنيستهم التي باليمن، فقصدوًا إهانة الكعبة وتعظيم كنائسهم فأرسل الله عليهم طيرًا أهلكهم عامتهم، وكان ذلك عام مولد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان ودين النصارى خير منهم، فعلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذٍ، بل كانت لأجل البيت، أو لأجل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي ولد في ذلك العام عند البيت أو لمجموعهما، وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته.

فإنه إذا قيل: إنما كان آية للبيت وحفظًا له وذبًّا عنه لأنه بيت الله الذي بناه إبراهيم الخليل فقد علم أنه ليس من أهل الملل من يحج إلى هذا البيت، ويصلي إليه إلا أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي فرض حجه والصلاة إليه[1].

(١) «الجواب الصحيح» (٤/ ١٢٢).